الفصل الرابع

المرأة فى حياة كامل الشناوى

أو تدرى بما جرى؟
أو تدرى؟ دمى جرى
جذبتنى من الذرى
ورمت بى إلى الثرى
أخذت يقظتى، ولم
تعطنى هدأة الكرى!

كامل الشناوى

obeikan.com

عاشق المينيون!

كان كامل الشناوى يعشق المرأة الجميلة الذكية... ويفضل المرأة الحلوة قليلة الجسد التى تسمى بالفرنسية "مينيون" والتى كتب الشاعر الكبير صالح جودت قصيدة على لسانها تناجى فيها محبوبها قائلة:

يحـــبنى... أحـــبـــه.. ويزدهينى حـــبـــه
وفـــرته تعـــجـــبنى... وقلتى تعـــجـــبـــه
كـــأننى فى إصـــبـــعـــيـــه حـــينمـــا أقـــربه
ســيــجــارة تؤنســه... تدفـــئـــه... تلهـــبـــه
كـــأننى لعـــبـــتـــه... وأضلعى ملعـــبـــه
كـــأننى عـــصـــفـــورة، زقـــزقـــتى تطربه
يضـــمنى فى يده.. ويحـــتـــوينى جـــيـــبـــه
أكـــــاد من تيـــــهى بـه... آكله أشـــــربـه

وكامل الشناوى هو الذى قال بعد أن أضنته السنين وأجبر على طى اللواء:

"أصبح النوم كالحب... أريده ولا أقوى عليه، ولكنه ظل عاشقا للجمال: "إلى أين يقودنى ولعى بالجمال؟ إنه إحدى حقيقتين عثرت عليهما فى حياتى...أما الحقيقة الأخرى... فهى الموت".

"وبقدر ما أكره الموت.... أحب الجمال".

وقد ظل قلب كامل الشناوى قلبا عاشقا نابضا بالحياة لا يعترف بالشيخوخة أو الهرم، وظل السنوات طويلة يعشق ملهمته "المينيون" رغم اكتشافه غدرها بعد أن تلقى خنجر الخيانة المسموم فى قلبه فأدماه وأبكاه. وحاول أن ينساها لكن بلا جدوى... فصرخ يخاطب طيفها:

"لا تطاردينى هكذا...إننى لا أراك،ولا ألتقى بك... فلماذا ترغميننى على أن أعيش معك دائما بالخيال والذكرى؟ "

"ما أقسى هذا الجمال الذى يتعقبنى... كلا ليس ما يتعقبنى جمالها،ولكن الذى يتعقبنى حنينى الطائش،ووفائى الأحمق".

وحاول كامل الشناوى أن يجتر احزانه ويبتلع مرارة الهجر والغدر، لكن قلبه ظل دائما ينبض بحبها:

مـــــــــــا أنـت يـا قـلـب ؟ قـل لـى
أأنـــت لــعـــنـــة حــــــــــــــبـى
أأنـــت نـقــــــمـــــــة ربـى؟
إلــى مــــــــــتـى أنــت قـلـبـى؟ !

حتى صورتها طاردته فى صحوة ومنامه، حتى أصبح مشدوداً إلى طيفها الذى يلازمه: «اتركى لى يومى... ولا تدعى طيفك يقتحم أحلامى ويوقظنى ويخدعنى بأنك بين ذراعى،فإذا صحوت، لم أجد إلا ذراعى!

«اتركى لى يقظتى. لا تملئيها بشبحك الذى ينبض باللعنة والجاذبية.»

"ماذا تبغين منى؟ "

"هل تريدين أن نعود إلى حبنا القديم؟"

"ولكن كيف أعود إلى ماض قد اندثر؟!"

"هل تريدين أن نبدأ حبا جديداً؟! "

"ولكن كيف لى أن أبدأ بعدما انتهيت.."

"ولم يعد لى قلب يقوى على أن يحب،ولا على أن يكره؟!"

"اريحينى من ذاكرتى...اريحينى من ذاكرتك"

هكذا كان كامل الشناوى يخاطب طيفها فى صحوه ومنامه... وظل هكذا حتى آخر لحظة فى حياته رغم سهم الغدر، لم يطاوعه قلبه لا على الكره.. ولا على النسيان.. وكانت آخر همسة له قبل رحيله التغنى باسمها.. وعن بعض تجاربه ومواقفه فى الحب يروى لنا يوسف الشريف[1] لمحات من حياة شاعر الحب والشك والحرمان،فيقول:

"عن موقفه من الحب قال كامل الشناوى: "الحب شوق وحرمان، لهفة دائمة، عذاب ولكنه يطاق، الانتصار فيه ليس كالانتصار فى كل الأشياء، فإذا وجدنا ما نسعى إليه كان فى هذا نجاحنا.. أما هو فعلى عكس ذلك.. فإذا وجدناه وحصلنا عليه. فمعنى ذلك أنه خاب والحب ضرورة للإنسان، والأديب أو الفنان إنسان كبير، إذن فالحب بالنسبة إليه ضرورة كبيرة، ومن هنا كان لزاما على كل أديب وفنان أن يحب وأحببت مرات ومرات"!

وعن حبه الأول يقول: "لست أذكر على وجه التحديد كيف كانت قصة حبى الأول، كل ما أذكره أننى كنت صبيا لم أدخل بعد مرحلة الشباب، كان حبا ساذجا لم ينته إلى غير الشوق والنسيان، كانت تربطنى بها أواصر قربى، كنا نلتقى فى منزلنا أو منزلها كل يوم أحسست نحوها شعوراً غامضاً. وجدته يدفعنى إليها وفى نفس الوقت يبعدنى عنها، كنت أتمناها

(١) يوسف الشريف، آخر ظرفاء ذلك الزمان، ص ١٠٦.

زوجة... ولكنى كنت أتهيب أن أهمس لها بكلمة حب واحدة،كان الحديث يدور بيننا قصيراً جاداً، وحركت هذه الحادثة شيئاً حلوا جميلاً فى قلبى كنت نسيته لأن العيون حولنا كثيرة.

كنت صبيا صغيرا لم يزل يخشى الحب. وافترقنا. ولما كبرنا التقينا مصادفة، جمعتنا المفأجاة المدهشة فى منزل الأسرة بعد سنين طويلة من عدم اللقاء، كانت حبيبتى قد تزوجت وأنجبت وفى لحظات هادئة صارحتها بما كان فى نفسى نحوها وأنا صبى،قصصت عليها شعورى زمان، وضحكت هى الأخرى من هواجس نفسى، وقالت أنها كانت تبادلنى نفس المشاعر والأحاسيس فى ذلك الحين، ولكن الوقت قد فات وهكذا دارت بى الأيام دورتها، وكما أحببت فى صباى أحببت فى شبابى. وإلى الآن ما زلت أتشبث بالحب، ولم أكن فى شبابى سعيداً بالحب، ومن هنا يمكن الإجابة على السؤال: هل أنا فى كهولتى مع الحب.. شقى أم سعيد؟!

ذلك كان اعتراف كامل الشناوى عام ١٩٦٠، حب الصبا المكتوم الذى ضاع، وشقاء شبابه بالحب... فماذا بقى له من مؤهلات الحب فى كهولته؟

أن يضيع الحب فى مرحلة الطفولة والصبا... فذلك أمر مفهوم فى سيرة كامل الشناوى... فربما كان السبب يرجع إلى بيئته الدينية ونشأته المحافظة فى الريف،وربما كان للبدانة والانطواء دخل فيما حدث،فمن منا لم يحب ولم يضع منه الحب فى ذلك العمر الغض؟!

ولكن كيف يشقى الإنسان بالحب فى مرحلة الشباب والفحولة، وإذا فشل مرة فى الحب، فما مصير تجاربه العاطفية مع غيرها وغيرها من المحبوبات؟!

ملهمات الشاعر

■ الشائع عن كامل الشناوى فيما روى عن نفسه، وفى روايات الذين خالطوه فى مرحلة الشباب، أن أول حب قاهرى فى حياته كان زمانه عام ١٩٣٠، ومكانه "المعادى" وكان اسم المحبوبة "س" وكان كامل الشناوى لا يزال فى مقتبل العشرينيات .

كانت "س" آية فى الجمال والرقة، رقة العود والصوت والسلوك لكنتها تختلط فيها الكلمات العربية بالفرنسية فتتحول على شفتيها موسيقى وسحراً!

ذهب إلى خالها يتلقى على يديه دروس اللغة الفرنسية استعداداً لدراسة الحقوق فى السربون، والتقى بها عدة مرات على انفراد، وبحث عن الشيطان ثالثهما كما تعلم فى الأزهر... ولم يجد أمامه سوى لوحة ربانية لا شرقية ولا غربية،ولكنها مزيج حضارى فريد ونبيل... كانت قطعة من الفن والجمال. من الحقيقة والخيال،كلماتها تغريد وسكناتها نسائم،ونظراتها ضياء الفجر...

لقد غيرت"س" من نفس كامل العاشق أشياء كثيرة، ووضعت مكانها الأشياء أخرى، طالب الأزهر ابن أحد كبار العلماء، وابن أخ شيخ الأزهر، أصبح شابا "أسبور" خلع من قلبه العمامة قبل أن يخلعها عن رأسه،سمع منها لأول مرة عن نظرية "دارون" وأسمعته السيمفونية الخامسة لبيتهوفن، وعلمته أصول "الأتيكيت" وفتحت أمامه آفاقاً على دنيا جديدة!

ولم تخل مواقفه معها من طرائف، كان أول الأمر يسير معها فيسبقها ويسرع ليجعلها وراءه كعادة الرجال مع النساء فى عائلته، وإذا قابلهما أحد

معارفها ابتعد عنها،فتناديه فيأتى خجلا كأنه فى موقف شائن!

ورأى الرجال فى عائلة "س" يقبلون أيدى النساء وفكر فى أن يقلدهم، وعندما التقى بها نسى نفسه وهو يقبل يدها، فهم برفع يدها إلى جبهته كما يفعل عادة مع والدته ووالده وعمه، ولكنه أدرك حرج الموقف بسرعة وتوقف.

يحكى الأديب عباس خضر، وكان زميلا لكامل الشناوى فى الأزهر... كيف لعب هوى المعادى دوره الحاسم فى حياة ابن الشيخ الشناوى: "أكثر الناس تأثيراً فى تربية كامل الشناوى وتكوين شخصيته، والده ثم حبيبة المعادى..." كانت أسرة والدته على غنى ونفوذ كان شقيق الوالدة محمد سعيد بك مدير الشرقية والغربية وهو من أوائل المديرين الذين حلوا محل المديرين الإنجليز وكان الصغير "كامل" يشعر باعتزاز وفخر بهذه الأسرة ذات النفوذ والغنى، ولكن الوالد كان حريصا على أن يجعله يدرك القيم الفاضلة التى تقوم عليها أسرة العلم والدين.

كان يقول له: "إذا جاز للإنسان أن يتباهى بشئ فأولى به أن يتباهى برجال يفيضون على الناس بالهداية والمعرفة لا برجال يظلمون الناس ويأخذون أموالهم، وكان لذلك أثره فى نفس كامل من حيث تقديره للناس ونظرته إليهم، فكان أول ما يعجبه فى الإنسان ذكاؤه وكبريائه ولا يهم بعد ذلك أن يكون غنياً أو فقيراً!

أما دور الآنسه"س" محبوبة المعادى فكان لها أقوى تأثير فى مجرى حياة كامل الشناوى الشاب،لقد شغف بها وشغل حتى عن دروس خالها فى اللغة الفرنسية وعن مواصلة الدراسة فى فرنسا. وغرق فى الشعر وغرق فى الحب... وهجر الأزهر بعد أن خلع العمامة واختط له طريقا مختلفا فى الحياة والعمل.... وقد صارح كامل حبيبته بأنه لا يفكر فى الزواج لأنه كان يعتقد أن وجوده فى الحياة مشكلة لم يصل ولا يطمح أن يصل إلى

حل لها... فلا يريد أن ينجب مشاكل أخرى!

كان يقول: كثيراً ما سألت نفسى عندما أصبح شيخاً محطماً... هل أواجه شيخوختى وأنا أتوكأ على عصا؟ أم أتوكأ على زوجة؟ ولم أتردد أن تكون لى عصا!

وكامل الشناوى تغزل فى محبوبة الصبا بشعر مريف لا يعبر عن نفسه...كان تقليداً وترديدا لمعانى وألفاظ الغزل التى قرأها فى شعر الشعراء القدامى،شكا من الهجر وهى تلازمه،وعبر عن الغيرة ولم يكن هناك أحد غيره، بعث إليها بالسلام على جناح النسيم وهى بجواره.

ويقول كامل الشناوى إن أول قصيدة نظمها فى حياته تعبر عن مشاعره الحقيقية كانت فى حبيبة المعادى المدموازيل "س":

المعـــادى أو نفـــحـــة من هواها
تودع النفس فى شذاها الشجونا
المعـــادى فـــقـــد تركت فـــؤادى
فى رباها مـــشـــردا مـــجنونا

* * *

فكرة الزواج إذن كانت عند كامل الشناوى مشكلة لأنه ا لا مشكلة... فكيف يخاطر بإنجاب المزيد من المشاكل ويقذف بهم إلى أقدار الحياة، هكذا كانت إجابته دائما كلما سئل عن سبب إصراره على العزوبية... فهل كان صادقاً؟!

الواقع يقول عكس ذلك... لأن كامل الشناوى أقدم فعلا على الزواج ذات يوم...

كان ذلك عام ١٩٤٥ وكانت الفتاة التى تقدم كامل الشناوى لخطبتها هى حفيدة شقيقة الأستاذ محمد التابعى الصحفى الكبير، كانت يومئذ فى السادسة عشرة من عمرها، وكانت بارعة الجمال،رقيقة وخجول، شديدة الأنفة، منطوية على نفسها، ووافق أهلها فكامل تربطهم به صلة قرابة، وهو قد وصل إلى منصب رئيس تحرير آخر ساعة وما زال فى الخامسة والثلاثين، ولكن ما رأى كبير العائلة؟

وأبرقوا إلى محمد التابعى وكان يصطاف كعادته فى أستانبول وأبرق إليهم بعدم الموافقة وعلم كامل الشناوى برأى التابعى ولم يفاتحه بعد عودته فى أسباب رفضه..

وكان التابعى يصطاف فى رأس البر بعد هذه الواقعة بسنوات، ودعا إلى "عشته" الفنان سليمان نجيب ومحمد عبد الوهاب وتوفيق الحكيم وأحمد الصاوى محمد وكامل الشناوى.

وفى إحدى الأمسيات كان جالساً على انفراد فى شرفة"العشة" وأحس أن كامل الشناوى مترددفى سؤاله عن أمر ما.. وأدرك بذكائه هذا الأمر.

وبادره التابعى: تريد أن تسألنى لماذا عارضت فى زواجك من (.....)؟

قال: نعم.

قال التابعى: أنت يا كامل مولع بالسهر طول الليل، تقوم الليل كله.

وتنام النهار كله، فماذا تفعل زوجتك الشابة طول الليل......؟

وأنت طبعا لن تصحبها معك فى سهراتك هنا وهناك، لأنى أعرف أنك غيور جدا ومحافظ جدا.. إذن فسوف تتركها فى المنزل، هل تظن أن هذه الحياة يمكن أن تقبلها فتاة تعرف عن نفسها أنها جميلة،ثم هى شديدة الأنفة والحساسية؟ ماذا تكون النتيجة لهذا الزواج.

وصمت كامل طويلا ثم قال: أصبت... الحق معك... ولكنى كنت أوثر أن تكتب لى برأيك هذا. فإذا أقتنعت به عدلت عن طلب الزواج وانسحبت.

قال التابعى: لقد سألونى برقياً،وكان مطلوبا منى أن أرد ببرقية. ثم أننى كنت أجهل يومها أين أنت؟ هل فى القاهرة أم الأسكندرية هل أنت حاقد على يا كامل؟!

ورفع كامل الشناوى رأسه وقال فى لهفة: أنا لم أحقد على أحد فى حياتى.. فكيف أحقد عليك؟

وظل كامل يختزن أحزان ذكرى تلك الواقعة التى لم يعرف بها أصدقاؤه وكثير من أقاربه،وبعد عشرين عاما تذكرها،وتذكر كيف اضطر أهلها إلى الاسراع بزواجها وكتب قصيدة يقول فيها:

كل ما أذكره إنا انتهينا

وتولانى الضياع

حين أبصرت الوداع

لا تثر حولى ضجة

فلقد أصبحت زوجة

هل كان رفضه فى أول إقدام له على الزواج.... سبب ى تنحيته الفكرة بعد ذلك... واختياره أن يعيش أعزب حتى آخر أيامه!

ربما.. وربما اقتنع برأى أستاذه التابعى الذى وافق رأيه السابق فى نفسه، أنه مشكلة... وأن زواجه يعنى المزيد من المشاكل...

على أن كامل الشناوى وقد أصبح صحفيا ملء السمع والبصر... وشاعرا ذائع الصيت... فارقته عقدة الانطواء والعزلة... ظل يبحث عن

الحب... الحب بأى ثمن. كان كما المقامر الذى يلعب ويلعب لعله يعوض بعض خسارته، وكأنه بالحب وفى الحب يهرب من شئ... أو يبحث عن شئ.

وفى الأوساط التى كان يتردد عليها كامل الشناوى... بدأ قلبه يتصيد الحب.. ينتقى المحبوبة ويحاصرها... يدغدغ عواطفها... بحلو الكلام.. ورقة الشعر،وروعة الصوت.. وقد يغدق عليها المال والهدايا.

وقد يأخذ بيدها إلى أجواء الشهرة... وقد... وقد تستجيب وتقع فى هواه... ولكن سرعان ما يدب الشقاق.

هكذا عاش كامل الشناوى العديد من قصص الحب والعشق والإلهام، بعضها توافرت له مقومات الكمال والندية فى مقتبل شبابه. ومعظمها تجارب طائشة ومتشابهة لا تتجاوز عواطف الصبا الجياشة.

حيث تتهيأ محبوبته فى كل قصة إلى الالتقاء بالحب الكامل وإرواء أنوثتها فى أحضان رجل أو رجال آخرين.....

ولعل البيت الذى يقول فيه"أشترى الحب بالعذاب.. أشتريه فمن يبيع... من يبيع؟" يكشف بوضوح أن طلبه للحب والقرب والوصال. كان أكثر مما هو معروض، ومتاح فى مرحلة الكهولة، وكان يصف نفسه بقوله "العجوز الطائش، كالسهم الطائش، كلاهما لا يصيب الهدف... يا ويلى من طيشى".

نعم كان حبه دائما يندرج تحت باب "المستحيل" لأنه كان يفتقد إلى التكامل والندية، والمتأمل لعبارات المناجاة والهمسات العاطفية فى نثره، يتبين وبوضوح حظه العاثر مع الجنس اللطيف، مع ذلك الطراز..... "البرعمى" الذى كان يتحرق شوقاً إلى غرامه، وقلة حيلته فى الوفاء بالتزامات الحب الكامل الذى يروى عطش المرأة التى تعيش ربيع العمر والجمال:

«أننى أعانى تناقضا رهيبا فى حياتى... جسدى أرهقته الشيخوخة، ومشاعرى لم تتجاوز بعد مرحلة الطفولة، وتفكيرى فى عنفوان الشباب".

وكان يخاطب نفسه قائلا: "احتشم يا قلبى... فالحب طيش وشباب... وأنت طيش فقط!".

كان الحب لكامل وقودا للقلب، ومحركا لنبضاته، وإلهاما لخياله وإبداعه، وسببا للتعلق بالحياة، وما الذى يبقى له أن يعيش من أجله سوى التعلق بالحب: "أحيانا تنتابنى حيرة لا أستطيع معها أن أحزن او أفرح.... لأن الأيام التى تنقضى من عمرى تزيد من سنى وتجربتى وثقافتى، وانفعالى بالجمال، فكيف أحزن على النقص... ولا أفرح بالزيادة؟... أننى دائما دائما ناقص وزائد".

كامل الشناوى كان يستعذب الألم فى الحب، ويرتشفه، ويعيشه، ويصطنع لنفسه من عذاباته عالما خاصا من فلسفته للحب، تمثلتها حياته وشعره وحواراته اللماحة.

سألنى: ألا تزال تحب؟ قلت:ربما.

ألا تعترف أنك لم تظفر من الحب الا بالعذاب؟

قلت: وماهو الحب؟

التقاء عاطفة بعاطفة.

قلت: إن هذا الالتقاء هو عود الثقاب الذى يشعل نار الحب فإذا اشتعلت النار التهمت الالتقاء والتهمت أيضا عود الثقاب.

قل لى أنت ما هو الحب؟

قلت: الحب إن تتعذب وحدك وألا تفرض العذاب على سواك.

قلت: أنا فى العذاب أنانى...أستأثر به لنفسى.

-ما أسعدها.

قلت:ما أشقاها وما أشقانى... فقد يصحو ضميرها ذات يوم فتعانى عذابى،وتتركنى وحدى بلا عذاب.

يوما زاره الممثل سعيد أبو بكر ومعه أحد أقربائه، رجل تجاوز الخمسين ثرى من أثرياء السويس، جاء الرجل يسعى إلى شاعر الحب يعرض عليه حاله مع حبيبته التى هجرته... وخانته... يسأله ماذا يفعل معها؟ وماذا يفعل مع نفسه؟

كانت تصغره بأكثر من عشرين عاما،رقيقة وجذابة ومثقفة، وكان قد بذل فى سبيل حبها وقربها وزواجها الآلاف.. وطلب النصيحة والمشورة من كامل الشناوى.

وفوجئنا بإجابته: "هى لم تفعل إلا الصواب،فالغدر شيمة حواء، وإذا لم تكن قد فعلت ما فعلت فهى ليست بالمرأة الكاملة الأنوثة، المشبوبة العاطفة، لقد فازت بالحرية وتركت لك الألم... يابختك!"

وذلك كان موقفه من الإنسانة التى تهجره أو تكرهه أو تخونه، كان لا يكف عن مواصلة حبه لها مادامت قد وقعت فى بؤرة الضعف من قلبه وذابت فى أعصابه ووجدانه، بل ربما كان ذلك أدعى لإضرام النار فى القلب العجوز، فيتوهج، ويضئ.. فى حواره مع حبيبته يقول:

سألتنى: هل تحب الجمال؟

قلت لها :أننى فيه.

قالت: أى أنواع الجمال أحب اليك؟

قلت: الجمال الذى يكرهنى.

قالت: وهل أنا جميلة؟

قلت: وأحبك.

وكامل الشناوى عرف "الحب الكامل" وشرب منه وغرق فيه.

ولعل أعمق قصة حب لكامل فى حياته وأبعدها أثرا كانت فى السابعة والعشرين من عمره، وهى التى اطلقت ملكاته الشعرية من عقالها العاطفى، وفجرت مشاعره المكبوتة فلم يهتم لا بالتقاليد الموروثة ولا بالشهرة أو المكانة الإجتماعية. كان ذلك عام ١٩٤٧ وكان لا يزال يملأ الدنيا أملا وشعرا وغناء عذبا حالما، كانت غانية، وكان اللقاء فى كباريه بديعة مصابنى، ذهب إلى هناك يستروح مع أصدقائه عناء العمل الصحفى، فوجدها تتهاوى إلى مائدته،وكان الصحفيون آنذاك لهم من الأهمية فى هذه الأماكن مالتجار الحرب والقطن والعمد وجنود الحلفاء من بريق جاذب، ونظر إلى وجهها الملئ بالأصباغ،وإلى يدها التى حرقت أصابعها السجائر،وترامت إلى أنفه رائحة الخمر تفوح من فمها ورغم ذلك وقع فى هواها.

ظل يتنقل معها بحبه من كباريه إلى آخر، ثم يصحبها فى آخر الليل بعيداً عن الأضواء، وظل على هذه الحال عامين، وأدرك أخيرا أنه غارق فى الحب الكامل، وأن غانيته مرحة أكثر مما يجب وطروب مع من يدفع أكثر وثار لكرامته وأدرك شقاءه وتعاسته وقرر أن يهرب،وعلى نفس مائدة اللقاء... شربا معا نخب الفراق.

وكانت له كعادة الشعراء الأوائل وقفات وزيارات للأطلال العاطفية، وكثيراً ما كان يحلو له أن يقلب فى ألبوم ذكرياته العاطفية... ويحن إلى ماضى الفحولة والعطاء المتبادل.

obeikan.com

صحبنى ذات مساء إلى أحداهن، لبنانية الأصل، أوربية الاسم "روز" وترجمته بالعربية "زهور" كان اللقاء فى بار أنيق فى أحد الممرات الجانبية من شارع شريف، تحمل مسحة من الجمال الغارب، وبصمات السهر سهر الليل، شعرها الذهبى أصبح كالح الصفرة ووجهها مصبوغا بالمساحيق، وقوامها رغم اكتنازه ما زال يتقن فن التثنى، ولكن عينيها ظلتا برغم الزمن شابة فى الثلاثينيات تلمع فى الضوء الخافت بريقا وسحرا وذكاء..... و......

"أزيك يا كامل بيك" و"أزيك يا زهور".... وذكريات وضحكات كان صداها يصلنى فى المكان الذى جلست فيه بعيدا.... ولم أسأله عنها ولا عن ذكرياته معها، ولكن سهرة جمعتنا بالفنانة تحية كاريوكا فى شقته التى أستأجرها بالأسكندرية صيف ١٩٦٣ فى الأزاريطة كشفت عن هوية "زهور" وعلاقتها العاطفية بكامل الشناوى.

كان قد فرغ من الشراب،ومن لعب "البوكر" مع جلال معوض وليلى فوزى وصلاح ذو الفقار وحرمه والسيد بدير وشريفة فاضل... كان سعيدا بالصحبة الحلوة ونسمات البحر تندى مجلسه،عندما طلبت تحية كاريوكا منه أن يروى قصيدة العيون.

كانت تحية كاريوكا تعرف الكثير من غرامياته مع الغانيات والفنانات، وكان يحترمها ويخشى لسانها، وذاكرتها، ولكنه تململ وحاول أن يشدنا إلى حديث آخر.... وإذا بتحية تسأله: ما شفتش "زهور" يا كامل بك... مش فتحت بار.... و.... كأنه لم يسمع سؤالها وتربع على الكنبة،وفى نبرات متهدجة بالألم والذكرى بدأ يروى قصيدة العيون:

لا وعينيك يا حبيبه روحى

لم أعد فيك هائما فاستريحى

سكنت ثورتي، فـصـارت سـواء
أن تلينى، أو تجنحي للجموح
واهتدت حيرتى، فسيان عندى
أن تبوحي بالحب أو لا تبوحي
وخيالي الذى سما بك يوما
ياله اليوم من خيال كسيح!
والحنان الذى غمرتك فيه
ضاع مني... وخانني في جروحى
والفؤاد الذى سكنت الحنايا
منه... أودعته مهب الريح
لا وعينيك!
ما سلوتك عمرى
فاستريحى
وحاذرى أن تريحى

وفهمت كما فهم الجميع... فقد كانت القصيدة تعنى «زهور» واحدة من قصص الهوى الشهيرة التى عاشها الشاعر مع الغانيات،أبان ميعة الشباب الواعد بالأمل والحب الكامل؟

لكن هذه القصيدة لم تكن الوحيدة التى تغنى فيها كامل الشناوى بحبيبته «زهور» فقد جمعتنى الصدفة بصديق شبابه المصور منير فريد،ووجدته يحتفظ بمسودة قصيدة أخرى كان قد نظمها وحبه لها فى الرمق الأخير:

obeikan.com

آن يا عـــين أن تغـــيض الدمـــوع
آن يـا قـلـب آن تـقـــــــر الـضـلـوع
آن يالـيـل أن يـطـيـب الـهـــجـــوع

* * *

كم ســقـــينـا بـه وكـم قـــر عـــينـا
ووصـلـنـا فـــــراعـنـا بـصـــــدوده
وبـكـيـنـا فـكـان يـضـــــحـك مـنـا
ســاخـــرا من عـــهـــودنا وعـــهـــوده
من نـذير إلـيـــه يـخـــبـــر أنا
قـد نـسـيـنا حـتى احـتـمـال وجـوده

* * *

خـــبت النار يا حـــبـــيـــبى بقلبى
فـتـفـنن كـيف شـئـت هجـرا ودلالا
لست بالموت حـتى لتـبـعث شـعرى
شـعلة من دم كـمـا كـان قـبـلا
تـه دلالا كـــمـــا تشـــاء الآنا
واغـــمـــر الكون رقـــة وحـنانا
لـن تراني المعـــذب الـولهـــانا
لن تـراني يقـــبل الدمع خـــدى
لن يثـيـر الفـراق شجـوى كـعـهـدى

وإذا كانت «زهور» أعمق «حب» لكامل الشناوى، فإن أشهر قصة حب على هذا الصعيد كان مع الفنانة كاميليا... مارلين مونرو الشاشة المصرية،ذات الجمال الصارخ وعشيقة فاروق ملك مصر، والتى أحبها كامل الشناوى وفتن بها وظل يعشقها قبل أن ينتهى عمرها القصير بفترة قصيرة.

كانت قصته مع كاميليا على كل لسان،فجمالها وشهرتها كانت دائما تفضح لقاءهما فى أى مكان ذهبا إليه... فكان شعر كامل الشناوى فى أوصاف جمالها الفريد، كأنه فزورة سهلة الحل.

وقد يعتقد الكثيرون أن أغنيه «أنت عمرى» كانت أول لقاء فنى بين عبد الوهاب وأم كلثوم، وهذا غير صحيح فقد سبق هذا اللقاء،لقاء فنى آخر... موضوعه «كاميليا».

كان ذلك عام ١٩٥٤، وكانت المناسبة عيد ميلاد صديقه الأستاذ حسن الأعور... وكان بين المدعوين أم كلثوم وعبد الوهاب وتوفيق الحكيم ومصطفى أمين وفكرى أباظة والدكتور عبد الوهاب مورو... وكامل الشناوى وصديقته كاميليا.

حاولت أم كلثوم أن تداعب كامل الشناوى... فاتهمته بأنه يتحيز صحفياً لكاميليا ويحابيها باهتماماته الصحفية وحاول أن يقطع عليها طريق التريقة... فاعترف أمام الجميع بأنه متحيز فعلا لكاميليا... ولكن أم كلثوم أحرجته وقالت: إذا كان هذا صحيحا فقل فيها شعرا.

وبادر عبد الوهاب وقال: وأنا مستعد أن ألحن هذا الشعر فورا.

وقالت أم كلثوم: وأنا سأغنى اللحن فى الحال.

ووافق الجميع.. ولم يجد كامل الشناوى بدا من أن ينتحى جانبا ونظم أبياتا من وحى اللحظة غزلا فى كاميليا:

obeikan.com

لست أقوى على هواك ومالى

أمل فيك... فارفقى بخيالى

أن بعض الجمال يذهل قلبى

عن ضلوعى... فكيف كل الجمال

وقرأ عبد الوهاب القصيدة ولحنها على العود، وغنتها أم كلثوم، واستعادها الحاضرون مرات ومرات حتى مطلع الفجر، ولم تكن كاميليا تفهم اللغة العربية الفصحى فكان توفيق الحكيم يترجم لها الأبيات إلى الفرنسية.

والمتتبع لقصة كامل الشناوى العاطفية مع كاميليا، يلاحظ أمرين لهما ما وراءهما.

الأول: أنه والملك فاروق، كانت لهما علاقة بالفنانة كاميليا فى فترات متقاربة فهل كان ذلك ما تحمل، آخر قصائده فى كاميليا حين افترقا... الشعور بالكبرياء والإحساس بالخطر؟

يا كبريائى لقد كلفتنى خطرا

فيه المنايا مطلات بأنياب

تمرد الليل لا أغفو به أبداً

حتى أرى الفجر مسفوحاً على بابى

وعندما جاءته نوبة الإغماء بعد «حلة العدس» الشهيرة وأصبح بين الحياة والموت، وأمام غرفته بمستشفى قصر العينى، تجمع أهله وأصدقاؤه وكان بينهم إحسان عبد القدوس وهيكل وفتحى غانم والخميسى والملاخ وموسى صبرى وبليغ وعبد الحليم، خرج الدكتور أنور المفتى وبشرنا بالأمل... «الأمل فى حياته ٥٪ والباقى على الله» ولمعت فى رأس إحسان

فكرة أن يتصل بمطربته الصغيرة... وتأتى إلى القصر العينى، وتدخل عليه غرفته، وتجلس على أطراف سريره، ويلمحها بعيونه الغافلة، وهو بين الحياة والموت، وينبض قلبه بالحب ويتشبث بالحياة(١).

ذات يوم مشمس، والوقت صباحا، وبوكيهات الورود تصطف فى ممرات مستشفى الكاتب وكأنها أحياء تتمنى له الشفاء، كان يرحمه الله يقرب من سريره «بوكيهات» الورود بقدر محبته لأصحابها، أما الذين أرسلوها دون أن يكلفوا أنفسهم زيارته، فكان يصرفها إلى خارج غرفته.

وجاءت محبوبته الفنانة «المنيون» ودخلت غرفته على استحياء وخجل ولم يكن قد رآها منذ زارته فى قصر العينى، ونهض من رقاده شابا متلهفا، وغادرناه ،ثم خرجت بعدنا، ولكنها ظلت بجواره على «الكومودينو» بوردها الأبيض والأحمر القانى.

كانت قبل ذلك خجلى أن تواجهه على سرير المرض، وهى التى ألقت به إليه أو أسلمه له حبا لها، أرسلت تسترضيه بورودها، فأمر بوضعها فى الممرات، أرسلت صوتها على أسلاك التليفون، وبثها الشاعر الرقيق من روحه مرحا وثناء وحبا وغرها الثناء وجاءت إليه.

وزاره بعد قليل الموسيقار محمد عبد الوهاب، ووجده نشطا متيقظا فرحا، لم يستفسر منه عن المرض والعلاج، ولكنه سأل: عامل أيه مع الحب يا كامل؟

أنا مش عامل مع الحب، هوه اللى عامل فيه يا محمد.

وعامل فيك الحب أيه يا كامل؟

اهتم الأطباء ببيوت الداء، وأهملوا القلب، فيه الداء نفسه!

(١) كان ذلك عام ١٩٦٤ قبل عام من وفاته.

ـ سلامة قلبك يا كامل.

ـ دواء القلب كان هنا من شوية.

ـ طيب مبروك يا كامل... مبروك علينا قلبك.

وكان كامل الشناوى قد كتب قبل لقائه الأخير بمحبوبته يقول:

«ان الحب مثل القانون، يحمى البرئ ويتعقب المجرم، وقد كان يحميها فأصبح يتعقبها....

«تعالى... لا تخافى أن تذكرينى بالماضى... أننى عندما أراك لا أغوص فى أيام ذهبت، ولكنى أتسلق ما بقى لى من أيام!

«ليس فى حياتى ماض وحاضر ومستقبل، حياتنا فترة واحدة هى الماضى».

«الأمس مضى، واليوم يمضى، والغد سيمضى، تعالى ولا تترددى! فلم يبق من عمرى ما يسمح بأن تترددى!!».

وغادر كامل الشناوى المستشفى عام ١٩٦٤... وظل يراودها عن قلبها وحبها ووصالها نثرا وشعرا ورسائل ومكالمات.. وكان يلتقى بها وكان يفترق عنها... وكان فى ذلك كله يعيش الحياة العاطفية ويتنفس الحب وينفعل.

وفى تلك المرحلة الأخيرة من حبه لها ومن حياته.. كتب ثلاث قصائد الأولى يبكى فيها أطلال حبه وكانت بعنوان «ظمأ وجوع»:

أحببتها وظننت أن لقلبها
نبضا كقلبى
لا تقيده الضلوع !!
....أحببتها

... وإذا بهـــــا قلب بلا نبض

... ســـــراب خـــــادع

... ظمـــــأ وجـــــوع!!

فـــتـــركـــتـــهـــا....

لكن قلبى لم يزل طفـــــلا

يعـــاوده الحنين إلى الرجـــوع

وإذا مـــــتـــــررت...

وكم مـــررت ببـــيـــتـــهـــا

تـــبـــكـــى الخـــطـــى مـــنـــى!!

وتـــرتـــعـــد الـدمـــــوع!!

والقصيدة الثانية كانت تجسد مأساته العاطفية معها... بعد أن تقطعت بينهما أسباب اللقاء...ولم يبق له منها سوى رؤى وأحلام اليقظة.

أنا لا أعـــرف حـــدا لهـــواها!

أنا لا أعـــرف حـــدا لهـــوايا!!

... كم يريني النوم منها عـجـبـا!

فـــتـــنـــة يـقـظـى

وروحـــــاً، وســـجـــايـا!!

ضـــمـــهـــا صـــدرى

ومـــســت شـــعـــرها راحـــتـى

وارتشفتها شفتايا !!

وعليها من ذراعي وثاق

شدّه قلبي

وأرخته يدايا !!

فإذا ما نفضت عيني الكرى

لم أجد بين ذراعيّ سواياً

ثم كانت قصيدته الثالثة «رفات» وفيها يرثى حبه الذى دفنه فى بئر الحرمان والذكريات:

قد خلت منك حياتي

وخلت مني حياتك

ما نراه منك أو مني

رفاتي، ورفاتك !!!

فى الفترة المتقطعة التى كانت تمر بعلاقة كامل بالمطربة الرقيقة خصاما، وهجرا، وصدا، كان يستوحش الحب... ويطيش حبه... ويبحث عن بديل يشغل قلبه ويحرك شاعريته... وكان يقول «أن قلبى لا يطيق أن يتسكع فى ضلوعه بلا عمل، ولذلك فهو حريص على ألا يعتزل الحب،حتى لا يتعرض للبطالة».

سأله مرة الفنان عبد الغنى أبو العنين مداعبا: المزاج الأيام دى عامل أيه يا كامل بك؟

وضحك قائلا: أسباجتى!

obeikan.com

وكانت المرة الأولى التى سمعته فيها يشبه المرأة بالطعام،وكان يعنى حبه الطائش لمضيفة شابة فى كافتيريا الهيلتون.

كانت مصرية الجنسية إيطالية الأصل، تتأرجح لهجتها بين جنسيتها وأصلها فى حيوية ظل بنات الأبيض المتوسط.

كان يعجبه فيها كبرياؤها، وودها، ورقة صوتها واخضرار عينيها، وقد بدأ ما يمنحه إياها من «البقشيش» خمسين قرشا ثم خمسة جنيهات وكانت ترد البقشيش دائما فى أدب وحياء.

كانت تعتز با ختياره لمائدة تقع فى منطقة خدمتها كل ليلة، حتى أنها طلبت من إدارة الفندق العمل دائما فى «وردية» الليل، حتى تحظى بثنائه ومداعباته وشعره.

كتب فى محبوبته المضيفة قصيدة بعنوان «الكافتيريا»... مطلعها:

مرت بنا كالطيف تسألنا ... ماذا نريد؟ فلذت بالصمت
ودنت لتسألنى على حدة ... عما أريد،فقلتها:أنت!!
غضبت وألقت نظرة نزعت ... قلبى وشدته إلى فمها
ياليته يقوى يقبلها ... ياليته ينساب فى دمها
وأردت أرضيها، فقلت لها: ... هل تعرفين،ومن أكون أنا
أنا يا صبية شاعر هرم ... قد جاء يستوحى الشباب هنا
أريد إلهامة جديدة ... بقدر ما أنظم القصيدة
وقصيدتى مازلت أنظمها ... وأظل طول العمر أنظمها

ولم تكن مضيفة الكافتيريا على صورة الجمال الذى يستهوى كامل الشناوى، كانت ممتلئة بعض الشئ ولكن حبه لها كان يكمن فى سلوكها

الرفيع، ويبدو أنها ذكرته بلمحات من فاتنة المعادى وسلوكها الأوروبى، وكبريائها...

وكان دائما يفاخر بكبرياء محبوبة الكافتيريا، وكان يراهن أصدقاءه على أنها ترفض «البقشيش» على مائدته... وكانوا يجربون دفع الحساب والبقشيش، فتأخذ الحساب وتترك البقشيش.

ولم يستمر الحب كما كان طعام الكافتيريا... تتناوله سريعاً وتترك مكانك لغيرك، وكسب أحد أصدقائه الرهان ذات ليلة، عندما قبلت حساب الطلبات والبقشيش معا، وتخلت عن كبريائها، ثم انتقلت فجاة الى عالم السينمائيين بعد «غدوة» تناولها على مائدتها ضابط سابق فى سلاح الفرسان أصبح ممثلا سينمائيا شهيرا....

وعندما دخل علينا يصطحبها ـ كنا نسهر فى منزل عبد الحليم حافظ بالعجوزة ـ تطلعت العيون إلى كامل الشناوى وضحك قائلا:

«أنها لم تكن «غدوة» وإنما «غزوة» للفارس القديم».

وفى صيف عام ١٩٦٢، وشقة كامل الشناوى المطلة على البحر، كعبة لأصدقائه وأهل الفن والصحافة والشعراء والظرفاء، كان الخميسى يزوره يوميا فى قمصان الشباب الملونة، منطلقاً، معربدا، يلتهم بهجة الحياة وملذاتها، وكأنه توقف عند سن العشرين ولم يتزحزح.

وزارت كامل الشناوى شاعرة بدينة معروفة لم تزل عذراء برغم أعوامها التى تخطت الأربعين... جاءت ومعها الجمال الذى يستهويه.

شاعرة مبتدئة تعمل معيدة بكلية الآداب بالأسكندرية.

كانت شابة آية فى روعة الجمال ورقته وذكائه، هيفاء ناحلة، ملونة عيونها بزرقة البحر وشعرها بلون الرمال.

كانت تطمع بزيارتها أن تخطو بتجربتها الشعرية إلى مزيد من تجارب الشاعر الكبير.

ويوما بعد يوم... لم يرض أن تقتصر التجربة على الشعر، طاش سعيدا بها ولعاً بعذوبتها، ولكنها بلباقتها ووقارها المبكر لمحت باعتذارها عن الحب.

وكتب بعد أيام يحكى لقاءه معها:

«فى مشاعرى همس جديد، لذيذ، غامض... أحاول أن أتبينه فتحجبه عنى ثرثرة التجارب وفضول الذكريات!!»

هل هو حب؟ هل هو نزوة؟

أننى مشدود من قلبى وعقلى إليها، إلى جمالها العبقرى، وأنوثتها الذكية، وملامحها الموهوبة المثقلة!

قالت لى: أنها تثق بى فى كل شئ إلا عندما أتحدث عنها وسألتها: لماذا؟

قالت: لأنك تجاملنى على حساب الواقع...

قلت: أخشى أن تتهمينى بالمبالغة إذا قلت أنى أجامل الواقع على حسابك!

قالت: هذا خيال...

قلت: بل هذه حقيقة، وما تظنيه خيالا أو مبالغة ليس إلا حرارة، لأنى أعبر عن الحقيقة بأسلوب دافئ!

ويوما دخل الخميسى على مجلسه معها... بصخبه واقتحامه الشجاع للمجهول... بشبابه الذى يقاوم الزمن، ويلمح على مائدة صغيرة فى الصالون عددا من زجاجات الأدوية الكثيرة الخاصة بكامل الشناوى، وفتح كل زجاجة وأخذ منها بعض الحبوب وابتلعها فى جوفه.

ثم بدأ يروى أمام الشاعرة الشابة بعضا من تجاربه الشعرية وحكايات مثيرة معظمها لم يحدث قط، ولكنها فنية الحبكة مشوقة التفاصيل، وانبهرت الشاعرة بالخميسى و... لم تكرر زيارتها لكامل الشناوى بعد ذلك...

أكثر من عقدين من الزمان على وفاة كامل الشناوى تجددت حكاية حبه الضائع وقصيدته التى حطمت قلبه مع المطربة الصغيرة ولكن هذه المرة أمام المحاكم.

وتحت عنوان «كامل الشناوى وقضيته المعلقة» كتب الأديب كمال النجمى يستعرض تلك القضية واستطرد منها إلى حديثه عن كامل الشناوى الشاعر العاشق المفتون فقال(١):

الأوساط الأدبية والفنية فى القاهرة تتحدث الآن عن قضية تنظر فيها إحدى المحاكم المصرية، محورها الشاعر كامل الشناوى الذى ملأ الدنيا طول حياته بأشعاره وأخباره وأسماره... ولحن له الموسيقار محمد عبد الوهاب فى أواخر الأربعينيات قصيدةً «زعموا حبى يا قلب خطايا» ثم لحن له فى الستينيات قصيدة «لا تكذّبى».. فكانت لها ضجة وكثرت حولها التساؤلات، فقد تضمنت قصة أو حادثة واضحة المعالم، كان ضحيتها كامل الشناوى نفسه، ولكنه تحمل وطأة هذه الحادثة العاطفية بشجاعة، وتفكر فيها بشئ من الفلسفة الرواقية، مستسلما للأقدار، كعادته فى كل معاركه العاطفية التى خسرها جميعا على امتداد حياته..

فى قصيدته «زعموا حبى يا قلب خطايا» كانت ملهمته معروفة بالاسم والرسم، وكذلك كانت ملهمته الأخرى فى «لا تكذبى» وبينهما عشرين عاما، وعشرين حادثة عاطفية!.

إلا أن «لا تكذبى» كانت القفص الذى حواه حيا وميتا ففى حياته صار

(١) مجلة الدوحة/ يونيه ١٩٨٦.

لقبه «شاعر لا تكذبى» وحمل ديوانه الأول والأخير عنوان «لا تكذبى» وبعد موته بعشرين عاما دخل قفص «محكمة الجنح» بنفس هذا الاسم أو اللقب، مع أن «لا تكذبى» كانت مفتاح حريته من قصص الحب المتو لية «العاثرة»، وبهذه القصيدة استطاع فى أخريات حياته أن يسلو ويفطم قلبه الطفل عن ارتشاف قطرات الحب المر الذى أدمن عليه ولم ينظم بعدها شعرا فى الحب إلا ما كان من الحديث البرىء العاجز فى سهراته ونظراته وخطراته، ينظمها شعرا، ليلة بعد ليلة، من قلب خلى كان الحب وهمه الأكبر وانتهى بعد اليأس إلى السلوان وبرودة الذكريات!

كان كامل الشناوى نسيجًا وحده فى تعامله مع الدنيا، كما كان نسيجًا وحده فى شعره لم يشبهه أحد من زملائه وأصدقائه فى حياته الساهرة الضاحكة الباكية، ولا نسج على منواله أحد من معاصريه فى شعره الغارق فى التعبيرات المجنحة المبتكرة، والمصبوغ بصفرة المسكنة والاسترحام فى طلب الحب، مع ادعاء الترفع والاستغناء، كأنه «صاحب القلب المسكين» الذى أبدع فى وصفه الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعى فى بعض مقالاته القصصية الرائعة.

إن صاحب القلب المسكين الذى كان دائم الحب، دائم اليأس من الحب، لا يسلو ولا يبلغ أملا ـ كما وصفه الرافعى ـ هو بعينه كامل الشناوى، لولا أن الرافعى كان يتحدث عن نفسه، ويصف بلواه الشخصية!..

وفى مصر تتفطر قلوب كثير من الشعراء، غما وكمدا، لما يلقونه من جحود الناس كبارا وصغارا، فإذا مات أحد هؤلاء الشعراء انبعث اسمه عاليا مدويا كالرعد، وأدهشت عبقريته ـ فجأة ـ كل الناس يرون بعيونهم برقا يلمع فى سماء صافية، وعرف من لم يكن يعرف فضل هذا الراحل العظيم، فنعاه وبكاه واستمطر على جثده السحاب!...

ولكن كامل الشناوى كان أحد القلائل الذين انتزعوا لأنفسهم شيئا من الإنصاف فى حياتهم، ففرض نفسه على المجتمع فرضا فكان اسمه من فرط شهرته فى حياته كأنه ضوء معلق فى الفضاء، يتخذه الناس رمزا لأشياء كثيرة جميلة فى الحياة: الحب والشعر والسعادة والفن والمرح والصداقة والموسيقى والغناء!...

رأيته أول مرة سنة ١٩٤٣ فى مكتب أنطوان الجميل باشا رئيس تحرير الأهرام... وكانت مطربة لبنانية جديدة انفجرت شهرتها حينذاك كالقنبلة ورشحها بعضهم خليفة لأم كلثوم!..*

فلما نهضت الفتاة تغنى، راعنى صوتها بسعة مساحته واكتماله جوابا وقرارا، ولم يشغلنى من أمرها إلا هذه المقاييس الفنية،فلم يكن فى الأمر ما يدعو إلى أكثر من ذلك... ورأيت الباشا - وكان نبيلاً رقيقاً - يصغى إليها بحنو أبوى، أما كامل الشناوى فكان يرتجف سعادة، ويبكى طرباً فلما فرغت الفتاة من غنائها، وقف فألقى بين يديها خطبة مرتجلة بليغة، يثنى فيها على غنائها وعلى شخصها أحر الثناء، وتهدج صوته تأثراً، وبرقت أساريره، ولمعت عيناه!.

هذا الشاعر المتأجج العاطفة، القريب الدمع، كان قادراً عند الضرورة أن ينسى وينتقل بقلبه إلى إلهام جديد!... وهو بين هذا وذاك منهمك فى «المقامرة» بحياته، وبما فى يده، بلا احتراس، ولا مبالاة ولا شفقة على نفسه!

كذلك كانت صورته فى حياته، فكان محور الأحاديث الدائمة فى الأندية والأسمار الطريفة فى الصحف... حتى انطفأت ذات يوم من أواخر سنة ١٩٦٥ أضواء الساحة الكبيرة التى كان يلعب فيها كامل الشناوى أمام عيون الحشود الحاشدة!...

* هى المطربة نور الهدى.

والآن.. بعد عشرين عاماً من رحيله، فإن هذا الشاعر الذى بلغ فى عصره منزلة الضوء المعلق والرمز المجرد من الكيان المادى، لا تجد له أثراً إلا فى ديوان صغير الحجم سماه ناشره «لا تكذبى» تمسحاً بالأغ ية المشهورة، ثم نشرته إحدى دور النشر باسم ديوان كامل الشناوى دون أن تضيف إليه شيئاً ذا بال، مع أن له شعراً غير قليل متناثراً فى صحف قديمة، ولم ينشر فى ديوانيه هذين....

لقد عاش كامل الشناوى حياة ثرية لامعة وإن أثقلته المشكلات والأوجاع البدنية والنفسية، ولم يكد يفارق الدنيا حتى خمد صليل السيوف من حوله، كأنما كانت حياته حرباً طاحنة ثم وضعت أوزارها، وأمسى أصدقاؤه يتساءلون عن آثاره... أين هى؟!.... فكأنهم يتساءلون عن آثار شاعر مغمور أو منكور لم يعرفه ملايين الناس يوماً، ولا ترنم بشعره أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم حافظ ونور الهدى ونجاة وفريد الأطرش وغيرهم...

كان كامل الشناوى فى حياته يملأ الإذاعة المصرية بصوته المتميز العميق ويتألق بقبحه الجميل على «الشاشة الصغيرة»... ولو شاء لتألق أيضاً على الشاشة الكبيرة... ناهيك بالألق الخاطف للأبصار فى الصحف وفى الأندية وفى قمة مجالس الترف وذروة الهرم الاجتماعى!....

والآن يقال: هذا شاعر تخطاه الزمن شعراً وفكراً... كان فى الشعر آخر الرومانسيين على الطريقة العربية العباسية، آخذاً بلمحات من رومانسية القرن التاسع عشر الأوروبية ورومانسية مصر فى الثلاثينيات من القرن العشرين!... وقد أراد أن يجدد على طريقة شعراء التفعيلة حين ارتفعت رايتهم قبل عشرين عاماً، فتنازل عن البحور والقوافى تنازلاً صورياً ليدخل فى زمرة هؤلاء المجددين، بغير تجديد على غرارهم!!...

ولكن أحداً لم ينكر خلال حياة هذا الشاعر أنه استطاع بحيويته الجذابة أن يجعل أشعاره وخواطره وسوانحه وأشتات أفكاره تملأ «عموم» الآفاق المصرية والعربية، وبخاصة القاهرة... وصار تذوق الشعر مطلباً من مطالب عامة الناس فى أيامه، وكان من قبل مطلباً للخاصة من المثقفين... ولو لم يكن لكامل الشناوى فى شعره إلا هذه المأثرة لرجح بها ميزانه، فكيف وله معها مأثرة الصدق فى التعبير عن عصره ومجتمعه ومرحلته الاجتماعية والسياسية والفكرية التى كان يتحرك على اتساع أجوائها وملابساتها المعقدة المتباينة... ولهذا استمع إلى شعره ملايين الناس وتعلقوا بقائله الذى أنشدهم فأطربهم، وبكى بين أيديهم، ورقص تحت أنظارهم، وأقام لهم من هذا الشعر مبنى تغمره الأضواء، يختلط فيه فن المسرح بفن الرقص... بفن السيرك!!...

ومع هذا يمكن أن يقال ـ مع الأسف ـ إن كامل الشناوى الذى كان شديد التألق فى حياته،أمسى وقد طويت صفحته، وجفت أقلامه، على غيرما جرت به عادة مواطنينا الكرام من السخاء فى التنوية بأمثاله بعد موتهم، والمباهاة بأسمائهم وأعمالهم...

لم يتبق منه إلا الذكريات....

فى بيته بجاردن سيتى بالقاهرة ـ وكان حياً جميلاً هادئاً فى الماضى ـ جلست إليه قبل رحيله عن الدنيا بأشهر قلائل.....

كان قد غادر المستشفى متماثلا للشفاء بعد إحدى نكساته الصحية الخطيرة الكثيرة... ولم يبق من جسده الضخم إلا آثار البدانة التى أذابها الداء، فبدا كأنه أخ شقيق للمهاتما غاندى، أشهر المهازيل فى العالم قديماً وحديثاً..

وكان فى تلك الأيام الأخيرة من حياته قد استقرت نفسه،كأنها طابت ورضيت ووجدت برد الرضى وراحته بعد طول حل وترحال مع العذاب...

وانفضت من حول الشاعر المريض أساطير الرواة الذين صوروه كأنه كازانوفا ودون جوان وعمر بن أبى ربيعه وأبو نواس والخيام وبقية العشاق والفتاك من أرباب السيف وأرباب القلم الذين امتلأت كتب الشرق والغرب بأقاصيصهم...

ولم يبق من ماضيه فى الحب إلا العقابيل التى لا يستطيع محوها، والذكريات، يستدفىء على نارها الهادئة.. والاستمتاع الوجدانى المحض الذى تعنيه مشاهد ملامح جميلة على شاشة التليفزيون القائم قرب «الكنبة» التى تربع فوقها هانئاً بفنجانه القهوة «السادة» مع السيجارة، مع أن أوامر الأطباء حرمت عليه السيجارة والقهوة؟

وتمزقت الصلات بينه وبين مرح الحياة، إلا بالفكر والتأمل والخيال والكون... والنهاية الحتمية، وقبض الريح....

فإذا أبعد عن ناظريه بعض الوقت هذا المشهد الذى يزيده المرض رهبة فى نفسه، جلس مع أحد الناس كأنه يحتمى به، ويستشفى من داء بداء، على حد تعبير المتنبى!...

وقد تمر بخاطره هذه أو تلك ممن حكم عليه الزمن بالسلو عنهن وتحطيم صورتهن القديمة، فيتذكر قوله فى قصيدته «الخطايا»:

حطمتنى مثلما حطمتها

فهى منى وأنا منها شظايا

وهو قول ينطبق على دنياه كلها لا على حبائبه اللاتى نفض منهن عواطفه وقنع من رحلته معهن بالإياب بعد العذاب!....

ولعله الآن، وقد تحرر من هذه المشاهد كلها إلى الأبد، يطل على قصته: «الجديدة» التى تدور وراء قفص إحدى محاكم القاهرة، ساخرا مما يدور، غير عابئ بأن يعود فيتذكروه، لكنه لم يكن يخشى طوال حياته

أن ينساه الناس ويستغنوا عنه بعد موته، فالنسيان غاية كل حى، وسيشبع الأحياء والموتى نسياناً، بعضهم لبعض!...

وحتى القلائل من الشعراء الذين يضج الناس بذكرهم بعد موتهم، لا يلبث نسيان الحياة لهم أن يهيل عليهم ترابه!...

غير أن كامل الشناوى عاد فجأة بطريقة تشبه السحر، وتردد اسمه فى الصحف من جديد... وصار «قضية» معروضة على المحاكم، وكان قد فارق الدنيا وقضاياه فى الشعر والحب معلقة بدون حكم، مع كثرة أوراقها وتضخم ملفاتها!..

ولكن حسبه أنه نفض يديه من كل شئ.. وبقى بعده شعره الذى يقول:

أين يـأسى؟... لقــــد مـــضــى
ومـــــضــت مـــثـلـه المنـى
كـل مـــا كـــان... لـم يـكـن
وأنـــا لـــم أعــــد أنـــا

وقصيدة «النسيان» التى مطلعها:

آه مـن دورة الـزمــــان دهـتـنـى
ورمـــتـنى فى غـــمـــرة النســـيـــان

والشاعر يقهر النسيان بورقة واحدة من شعره، ما بقيت أمته تتكلم اللغة التى نظم بها شعره، ولكن ماذا يصنع الشاعر إذا نسيت أمته...؟! هذه قضية كل شاعر عربى!..

ويلقى الكاتب الصحفى موسى صبرى الأضواء على جوانب من سيرة

كامل الشناوى وبعض قصص غرامياته مع بنات الفن، فيقول[1]:

حلت ذكرى كامل الشناوى. ونحن أصدقاؤه ومريدوه وتلاميذه، نذكره بغير ذكرى. كان له فى كل يوم مشهد، فيه الحبكة القصصية، والعبارة الجميلة، والمفاجأة المثيرة. وكنا ننتظر مقدمه إلى مكتبه، لكى نلتف حوله، ونستمتع، ونبقى معه حتى مطلع الفجر. ويا ويل من يعتذر عن عدم البقاء.سيكون ضحية سهلة، لنكات وقفشات كامل الشناوى .

وجيل القمة فى الصحافة الآن.. يدينون لكامل الشناوى بفضل التشجيع، وفتح الأبواب المغلقة..

ومرتان دعانى كامل الشناوى للعمل معه.. ولم نصل إلى اتفاق.

المرة الأولى، بالتليفون. لم أكن قد عرفته أو قابلته. وكان ذلك فى عام ١٩٤٨ أو ٤٩ إذا لم تخنى الذاكرة. وكنت سكرتيراً لتحرير صحيفة «الزمان» اليومية المسائية. وكان جلال الحمامصى رئيس تحريرها.

كان كامل الشناوى يستعد لإصدار صحيفة يومية مسائية. ورشحنى زميل قديم هو المرحوم عبد الرحمن دنيا، لكامل الشناوى، أن أعمل معه. وفوجئت بتليفون منه. وبلا مقدمات، قال لى:

ـ كل طلباتك مجابة. مادياً ومعنوياً .

وأسعدنى العرض، ولكننى اعتذرت عن عدم قبوله وصارحت به جلال الحمامصى، الذى قال لى:

ـ هل تعرف كامل الشناوى؟

قلت: لا .. سمعت صوته فقط.

قال: كامل الشناوى كاتب لامع، ومحدث مقنع..

(١) آخر ساعة ـ نوفمبر ١٩٦٦.

وهو يبدأ أى مشروع بحماسة ملتهبة، وعند أول عقبة، تفتر هذه الحماسة، ويشعر بالملل. وهذه طبيعة الشاعر.

قلت: ولكننى سمعت عن استعدادات ضخمة لإصدار هذه الصحيفة..

قال: مهما كانت الاستعدادات.. فلن يعيش المشروع..

وصدق توقع جلال الحمامصى.. كان كامل الشناوى رحمه الله، موهبة لا تكمل المشوار.. يشرع فى كتابة قصة ولا يكملها.. يبحر بقلبه إلى حب جديد، ولكنه يعود سريعاً إلى الشاطئ يلعن حظه. يبدأ دراسة أدبية، وينشر منها مقالين أو ثلاثا، ثم يتوقف. دائماً كان قصيدة لا تكتمل.

* * *

والمرة الثانية كانت فى مكتبه بصحيفة «الأهرام».. فى اليوم الأخير من ديسمبر عام ١٩٤٩، وكان رئيس تحرير الشئون الداخلية، كنا قد قدمنا استقالة جماعية من «الزمان» بعد أن أعلن صاحبها المرحوم إدجار جلاد (باشا) أنه سيؤيد الوفد، بعد نجاحه فى الانتخابات، وبعد مولد سياسة الوفاق بين الوفد والقصر التى كان مهندسها فؤاد سراج الدين. وذهبنا إلى كامل الشناوى فى «الأهرام» لكى ننشر هذه الاستقالة.. وبهرنا مجلسه.. أدباء وشعراء ووزراء وفنانون، كأنهم فى ندوة. والكل يتحاور، ويضحك، ويؤيد ويعارض. صورة جديدة على شبابنا، وفرصة ذهبية أن نكون مجرد حضور صامتين فى هذا المجلس المزدهر.

ووعدنا كامل الشناوى بالنشر، وعند انصرافنا، أشار لى أن أبقى.

وبقيت وقال لى: لقد استبقيتك، لأننا أعددنا لك مكتباً فى الأهرام!..

وأعاد قوله القديم: كل طلباتك مادياً وأدبياً مجابة..

قلت: أننى أنشر تعليقاً برلمانياً كل أسبوع..

قال: لك هذا طبعاً..

ولكن الاتفاق لم ينفذ. اتصل بى جلال الحمامصى فى الصباح التالى، وأبلغنى أن مصطفى أمين ينتظرنى فى مكتبه بأخبار اليوم فى الساعة الثانية عشرة ظهراً لكى أعمل فى أخبار اليوم.. وقال الحمامصى، بلهجة مودته الآمرة: ستعمل فى أخبار اليوم. لأننى سأعمل بها! وأخذ على عاتقه مسئولية، إبرائى من وعدى لكامل الشناوى.. الذى مررت عليه فى اليوم التالى وتركت له رسالة اعتذار، فقد كان من أحلامى أن أخطو إلى سلم أخبار اليوم!

* * *

وأذكر ـ فى أغسطس عام ١٩٥٢ ـ أنى كتبت سلسلة تحقيقات سياسية، صدرت بعد ذلك فى كتاب بعنوان «قصة ملك و٤ وزارات».. وكنت أروى الأحداث السياسية التى سبقت قيام الثورة بستة أشهر، يوماً بيوم، وكان لى دور الشاهد فى معظمها..

وقرأها كامل الشناوى ـ وكان يرأس تحرير آخر ساعة ـ وقال لى: ـ سننشرها فى صفحتى الوسط فى آخر ساعة.. وكان ذلك دفعة كبيرة لى إلى الأمام.. ولكن المفاجأة السعيدة، كانت عندما قرأت آخر ساعة، ووجدت أن كامل الشناوى قد وضع اسمى على التحقيق الأول، مسبوقاً بكلمة «بقلم»..

كانت هذه هى شهادة الدكتوراه للصحفى الشاب، عندما تنشر سطوره، وعليها «بقلم» بدلاً من التوقيع بالبنط الصغير فى نهاية المقال!

كان مجرد وضع اسم الصحفى فى صحف أخبار اليوم فى ذلك الوقت، مكافأة كبرى، واعترافاً بأنه أصبح صحفياً.. وليس الأمر كهذا هذه الأيام..

وما أكثر الأسماء التى توضع على موضوعات أو أخبار لا تستحق

النشر.. وكان كامل الشناوى ظاهرة، يندر أن تتكرر.

وكانت مأساته فى قلبه.

كان قلباً طموحاً.. يسعى إلى أشهر الشهيرات، وأجمل الجميلات. وكانت عقدته فى بدانته، وافتقاده إلى الوسامة.. ولذلك، كان يعنى عناية فائقة، بملبسه.. وكان صاحب ذوق رفيع..

أحب يوماً فنانة اشتهرت بأنها قمة إغراء الجنس على شاشة السينما. ولكنه لم يجرؤ يوماً، أن يصارحها بما به ينبض به القلب الملتاع.. وكانت على علاقة عاطفية، مع مليونير معروف من كبار رجال الصناعة. وسافر المليونير إلى أوروبا فى رحلة عمل قصيرة، ولم يجد من يثق فى حراسته للغانية الجميلة، إلا صديقه كامل الشناوى.. ولم يكن يعرف بطبيعة الحال، أنه شهيد الغرام الصامت!

وكانت صاحبتنا ـ رحمها الله ـ من هواة المقامرة.. وكانت المائدة الخضراء، تجمع كل ليلة فى فندق وندسور، عدداً من الأثرياء وكامل الشناوى. وكان الشناوى، يقترض من جميع بنوك مصر لكى يقامر هؤلاء الأثرياء. وكانوا يكسبون، وكان دائما يخسر!.. ولكنه فى وجود هذه الفاتنة، كان يتعمد أن يخسر كل ليلة.. كان يخفى «الورق» الذى يكسب.. لكى يعطيها هى الفرصة أن تكسب!.. وفى كل مرة، كانت تنظر إليه، ممتنة، بمعنى أنها تفهم..

وفى الليلة الأخيرة، وكان مقرراً أن يعود صاحبها المليونير فى الصباح التالى.. طلبت الغانية، كامل الشناوى، لكى يوافيها إلى حجرتها بالفندق!

وذهب إليها، مضطرباً، مهتز الأوصال، لا يدرى لماذا دعته فى هذه الساعة المتأخرة.. وفاجأته:

ـ أنت تحبنى.. وأنت خسرت المئات، من أجل أن أكسب.. وأنت مدين وغدا سيصل صديقنا.. ولكن هذه الليلة لك.. لك أنت وحدك!

وماتت الجميلة، ولم يكن لكامل الشناوى معها ليلة ثانية!

* * *

الذكريات متلاحقة عن كامل الشناوى..

ذات ليلة، وكان كامل الشناوى يرأس تحرير الجمهورية، وكنت معه أيضا رئيساً للتحرير، وكان يفصل بين حجرتينا باب مفتوح..

دخلت عليه وكان فى قمة الانشراح!

كان قد أقفل التليفون، بعد حديث مع عباس العقاد.. وسألنى كامل: هل تعرف ما قال لى العقاد؟..

قلت: وكيف أعرف؟

قال: لقد منحنى إمارة الشعر.. وأن تأتى الإمارة من العقاد.. فهذا شئ أعتز به..

وفاض علينا كامل الشناوى، بكرمه فى تلك الليلة...

* * *

وكنت وحدى فى مستشفى الكاتب.. وكامل الشناوى، يعطى الحياة أنفاسه الأخيرة.. صديق له قد انصرف. وبقى مأمون الشناوى، وفتاة معجبة وفية للكاتب الكبير. وكانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل. كل ما حولنا صمت وظلام.. ثم حشرجات الصدر العليل. ثم بلا حشرجات.. ومات كامل الشناوى.

وعدت إلى بيتى، أكتب سطور رثائه بدمع سخين..

ساعات الرحيل

وعن اللحظات الأخيرة للشاعر كامل الشناوى كتب موسى صبرى قصة وداع هذا الشاعر الذى كان ملء الحياة، وكان بسمة ساحرة على وجه القاهرة ولياليها «منتصف الليل غادرت مسشفى الدكتور الكاتب إلى بيتى، هناك أمل، أمل كبير عند الأصدقاء، وأمل معدوم عند الأطباء ربما استطاع أن ينتصر ربما استطاع كامل الشناوى أن يحرك جفنيه، وأن يتكلم، لقد انتصر من قبل كنا نجلس فى غرفة صغيرة كالسجن اثنان من أشقائه والحلاق وأنا همسات التوسل لله، للمجهول للقدر. هى الرباط الوحيد بيننا على بعد مترين اثنين فقط، كامل الشناوى فى حجرته إغماءته لم تتقطع منذ ثلاثة أيام. المرض لا يتركه. جهاز الأكسجين صلته الوحيد بالحياة معه شاب لم يجاوز العشرين هو ابن شقيقته. أقرب الناس إلى قلب كامل الشناوى قلبه الذى تحاول كل معجزات الطب أن يعلو نبضه. ثم شابة لم تتجاوز الخامسة عشرة طالبة نحيلة متطوعة لخدمة الأب الحنون بلا ولد. الأنوار خافتة حولنا. بل هى ظلام. صوت واحد يهزها يزلزلها. أنين متصل من حجرة الشاعر. أنين متوجع مع كل شهقة وزفرة. كل الأمل أن تستمر الشهقات والزفرات.. وليستمر الأنين هذا أمل الأصدقاء ما دام يتوجع. فلا تزال فى الجسد بقية. أية بقية. بقايا الأمل فى قلوبنا وبقايا الجسد فى قلبه يلتقيان هل يحس هو بالألم؟ نتمنى أن يحس بالألم. هذا هو الدليل الوحيد الطب يقول أن الرئتين تذوبان كل شعيرة تصلبت الأكسجين ينتزع الشهقة.

(١) مجلة آخر ساعة/ أول ديسمبر ١٩٦٥.

انتزاعها يعنى كأن مسماراً ملتهبا ينغرز مع كل شهقة فى كل شعيرة.. آلاف الأسياخ الكاوية فى صدره. حول قلبه الأنين يعلو. يذوب فى أرجاء المستشفى الصامت وممرضة نراها جالسة ساكنة تقرأ مجلة مصورة هذا هو عالمها. الأصحاء هم الغرباء. يارب دعه يتألم. إنه يعيش ومتى عاش كامل الشناوى بلا ألم الألم حياته ولن يكون موته مزيداً ن الألم يا رب حتى يقاوم حتى ينتصر.. لقد انتصر من قبل منذ عامين انجفنان ذبلا ثم ارتجفا لحظة.. وصرخ أنور المفتى.. سيعيش.. وعاش كامل الشناوى وكنا نبكيه شهيداً. ومات أنور المفتى وبكيناه شهيداً. وبكى. لو بقى هكذا حتى الصباح. نعم ست ساعات فقط سيعود إلينا. ليتغنى بالألم لحنه الذى لم يمت ولن يموت. ولكن.. هل يحس حقاً بأنينه. كلمات الأطباء تهمس أنه فى غيبوبة. اغماءة كاملة الدم يجرى. الأنسجة تخترق الشرايين تتصلب. القلب متمرد على الحياة من قال:

لســـت قـــلـــبـــى... وإنمـــا
خــنــجـــــــــر أنــت فـى ضــلـوع

ويرتفع الأنين. ويهمس لى الأشقاء. ادخل لتراه وأصرخ. مستحيل لن أرى كامل الشناوى يرثينى نفسه بالوجيعة أريد أن يصحو أن يرثينى أن يمتع العالم بأنات قلبه. يدخل علينا الشاب الصغير مرتجفاً. ما... يد عمى اليمنى تهتز. أين الممرضة؟ وأقفلت المجلة فى هدوء وغبت عنا إلى حجرته وعادت.. لا شئ.. أنه الأكسجين يحدث بعض التقلصات حمداً لله. وأسأل الشاب. هل يفتح عينيه. لا. هل يميزك ولو لحظات لا نعم لحظة عند الظهر، حدث هذا. الحمد لله. سبحان الله.. حديثنا الآن عن شاعر تنبأ بغده!

دمـــعـــــتـى ذاب جـــفـنـهـــا

بســـــمــــتى مـــالهـــا شـــفـــاه

صـــــحـــــوة الموت مـــــا أرى

أم أرى غـــــفـــــوة الحـــيـــــاة

يارب.. اجعلها غفوة الحياة.. أية حياة.. ليبق لنا، يرى ويسمع لا ضرورة أن يتكلم. لقد غنى لنا ما أغنانا ويغنى أجيالاً مقبلة. لا تبخل عليه بحياة مستمع. أنت يارب تعرف رأيه فى حياته..

فـــحـــيـــاتى كـــمـــا ترى

لا ظـــــلام ولا ســـــنـــــا

كـل مـــــا كـــــان لـم يكـن

وأنـــا لـــم أعـــــــــد أنـــا

«ولكنه كان يحبها، كان يحب عذابها، وكانت كبرياؤه تحاول أن تخفى دائما هذا الحب ولم تكن أداتها إلا الكلمة».. ولكن أيامى اليوم قليلة وانتزاع عام منها يشعرنى بالفقر والفراغ والعدم فقط تجاوزت الأربعين تجاوزتها وحدى لا صحة ولامال ولا زوجة ولا ولد ولا صديق.. ولكن علام نبكى الحياة.. وماذا لو رحلت عنا أو رحلنا عنها.. مادام الرحيل هو الغاية والهدف وهل نحن والحياة والموت إلا كما يقول أدسون.. نئن ونبكى وهذه هى الحياة ثم التثاؤب ونذهب وهذا هو الموت امض أيها العام، امض فغدا مثلك سنمضى»، لا تصدقه يارب هذه كذبة بيضاء مثل قلبه، دعه يستمر يئن ويبكى لا تدعه يتثاءب صوت أنينه يعلو أكثر وأكثر الحمد للّه.. الأمل يتزايد.

وأسلم على الأشقاء.. أنا ذاهب إلى بيتى إننى منتظر مكالمة منكم بشرة الخير بإذن اللّه.

كل من فى البيت نيام، قبلت طفلى وكأننى غبت عنه دهرا جلست

وحدى فى صالة البيت الساعة تدق إنها تئن إنها تعيش الساعة الآن الواحدة بعد منتصف ليلة الاثنين الساعة الآن الواحدة من صباح الثلاثاء الساعة الآن أية ساعة، وبعد ساعات ومن قبل أيام كانت أى ساعة ما هو الزمن؟ إنه ما يطوى الحياة ماضيها وحاضرها ومستقبلها وعندما ينتهى القلم من هذه السطور يكون الزمن قد طوى فكرا عاش السطور، ودما أحرقته، وكيانا عانته وعاناها، وماذا تكتب السطور؟ هل تستطيع أن تعبر عن وجدان يعيش منذ ثلاثة أيام ذكريات عشرين عاما مع كامل الشناوى. ما هو الوجدان؟ لا أعرف آلاف الأشياء لا أعرفها فى الحياة وبعد الحياة ولكن الوجدان قادر أن يلغى الأزمنة والمسافات أنه يجمعنى مع عشرين عاما فى هذه اللحظات أنا أفكر إذن فأنا موجود وأنا موجود إذن فأنا أفكر أنا موجود الآن لابد أننى كنت موجودا قبل الآن بدأ وجودى أنا الفرد عندما خرجت من الأحشاء أصرخ بدأ وجودى أنا الإنسان منذ ملايين السنين أب واحد أم واحدة. ثم قتل الأخ أخاه وعرفت الشرور والأطماع، واختار كل رجل أنثاه أو أختارت كل أنثى رجلها، وعرفت الحب والأمل، وتوقف النبض فلم أعرف شرا أو حبا لست أدرى، ربما عرفت ربما عرفت أنا الروح بعد أن انسلخ من القلب شئ ولكن روح حبيبى لم تبح بشئ اختفت وكيف اختفت وهى لم تظهر أبدا أننى أرى جسدى وجسد الانسان ألمسه، أتحسسه، ناعم الملمس، خشن غليظ يعرق يبرد، يتألم، ويتوجع، يشتهى أنه يذبح الطير يجوع ويشيع إلى التراب يعود ولكن أين روحى؟ تحلق فى كل الآفاق.

هل صحيح؟ أنها باقية وأنا لم أعد باقيا هل صحيح؟ من يجيب؟.. أنا لا أسمع أحدا أسمع ولا أسمع أنا موجود هذه اللحظة لحظة كتابة هذه العبارة والعبارة التى تليها أنا موجود لأننى مازلت أكتبها قد يتوقف القلم قد

تقف حياتى عند هذا السطر، ولكننى أكملت السطر أريد سطرا آخر سطورا أخرى... ما أكثر ما أريد لا أعرف ما أكثر وما أجمل أو ما أبشع.. لا أعرف وكيف؟ أعرف؟ ما أشقانى بل ما أغبانى لأننى أريد أن أعرف دائما لماذا أريد؟... لأننى موجود؟.. لا.. لأننى أنسى أننى قد لا أكون موجودا.

التليفون يدق رنينه فظيع كأنه أجراس سجن كأنه إنذار حرب ماذا تقول... مستحيل... ماذا تقول... كامل... البقية فى حياتك، ولماذا بقية لحياتى... لعينة هذه الحياة... غادرة خائنة.

سأردد لها يا كامل ما صارحتها أنت به...

دمــــــــــــرتـنـى لأنــنـى
كـنـت يـومــــا أحـــبـــهــــا
وإلـــــى الآن لـــم يـــزل
نـابـضــا فـــيـك حـــبـــهـــا
لــســـت قـــلـــبـــى أنــــا إذن
... إنمـا أنـت قـلـبـــهـــــا..

نعم للحياة قلب نعم كان لحياتنا قلب كان لحياتنا كامل الشناوى، أنا أكتب الآن خبرا للجريدة يا لتفاهتى، غدا هناك دائما من سيكتب أخبارنا، موت كامل الشناوى أصبح خبرا للصفحة الأولى. لا تنسوا الصورة وما قيمة الصورة صاحبها تركنا إلى الأبد، عرف ما لم نعرف بعد عرف الموت، فما دام الموت يتعقب حياتنا، وما دمنا لا نعرف من نحن فإن المجانين وحدهم هم الذين يضحكون للحياة..

وذهبت كالمجنون إلى المستشفى لألقى الموت.. الدنيا ظلام.. دموع كل

شئ بشع. مخيف أننى خائف..

وأرى صديقه الذى كان يستعد للاحتفال بعيد مولده بعد أيام.. كما اعتاد أن يفعل منذ سنوات أراه ولا أراه شئ ينهنه فى الظلام إنه يبكى والأخوة يبكون والجدر والأبواب تبكى ما أمامنا بقايا من بقاياه حقيبة فيها ملابسه. كتاب مغلق. ساعة وقلم. وجسد مسجى الهمس ينزف كالجراح. الصوت يعصف كالرياح والسهم يزحف بالصباح إلى المساء وبالمساء إلى الصباح ثم ماذا يا دهر؟... هل من جديد؟... هذا ما قدر القضاء علينا.

واجتمعنا حول المقبرة حول التراب وكأنه معنا شجرة صفراء بلا ورق، فروعها جافة لعلها بكته قبلنا بكل ماء دموعها، واجتمعنا حول المقبرة حول التراب وكنا شجرة واحدة صفراء وكنا فروعها الجافة.

وافترقنا على الأرض. وسنفترق يوما عن هذه الأرض. إلى لقاء يا كامل أجبنى إذا كنت تسمعنى أجبنى إذا كنت لا تسمعنى.

كان قلب كامل الشناوى قلبا كبيرا عاش بالحب وللحب يغرد له أجمل أغاريده وأعذبها.

أليس هو القائل:

أنا أهوى الجمال فى حيثما كان
حيا، أو ثائراً أو رزينا
أنا أهوى الجمال فى ظلمة الليل
يثير الحنين، والشجو فينا
فى حديث كالوحى، أولغه الحب

وكان هذا القلب العاشق يتسع للإنسانية كلها... أحب وأعطى، ولم يأخذ إلا الأسى والأنين..

كان بسمة جميلة يثير الابتسام والفكاهة فى كل مكان يحل فيه رغم أحزانه الدفينة، وأساه العميق...

وأثناء حياته عرف الكثير وقدم يد المساعدة للعديد من المواهب الجديدة فى كل مجالات الأدب والفن..

وعندما رحل كامل الشناوى عن الحياة بكاه الأصدقاء والتلاميذ والملهمات... وأخذوا يسترجعون لمحات من إنسانيته الكبيرة، وقلبه الذى اتسع للجميع، وروحه المعطاءة وأحسوا حينئذ بمدى الخسارة الفادحة التى ألمت بهم برحيل هذا القلب المعطاء الكبير الذى ظل كشجرة وارفة الظلال تخفف عمن حوله هجير الحياة، وقسوة الواقع وأشواك الطريق وشرع بعض أصدقائه فى استرجاع بعض ذكرياتهم عنه ولياليه التى لاتنسى.